تمثلات الشهادة في شعر سعيد يعقوب

ديوان عبير الشهداء نموذجاً

إعداد الدكتور

عبد اللّه عمر الخطيب

أستاذ الأدب العربي الحديث المساعد

قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة العلوم الإسلامية العالمية

تمثلات الشهادة في شعر سعيد يعقوب ديوان عبير الشهداء نموذجاً

عبد الله عمر الخطيب

تخصص الأدب العربي الحديث، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية

البريد الإلكتروني:Abdullahk76@hotmail.com

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى استقراء تمثلات الشهادة في ديوان (عبير الشهداء) للشاعر سعيد يعقوب، من خلال الوقوف على انعكاس حالات الصور الشعورية واللاشعورية في النص الشعري، سواء أكانت هذه الصور قد كشفت عما فيها من معان وأفكار عن حقيقة الشهادة أو مجازها، وما يكتنفها من آلام وآمال ودماء وقتل وتضحية، بشكل موضوعي واقعي، من خلال الدراسة الوصفية التحليلية، في إطار المتخيل والمرجعية لدى المتكلم والمتلقي.

الكلمات المفتاحية : تمثلات، انعكاس، الشهادة، الشهيد.

Representations of Martyrdom in the Poetry of Said Yacoub's Volume of Poetry "*Abeer Al-Shuhada*"; a Model

By: Abdullah Omar Al-Khateeb
Assistant Professor of Modern Arabic Literature
Department of Arabic Language and Literature
Faculty of Arts and Humanities
The World Islamic Sciences and Education University
Email: Abdullahk76@hotmail.com

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

Abstract

The basic purpose of this research is to induce the representations of martyrdom in Said Yacoub's volume of poetry entitled "*Abeer Al-Shuhada"* (Fragrance of the Martyrs) through examining the reflections of conscious and unconscious images in the poetic text whether those images have revealed their implicit meaning and ideas about the metaphor or truth of martyrdom. Those images also tell about the pains, hopes, blood, murder and sacrifice inflicted on martyrdom objectively and realistically through a descriptive analytical study. The study also runs in a context of visualization and reference as per the speaker and the recipient.

Key words: representations, reflection, martyrdom, martyr.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصـلاة والسـلام على سـيدنا محمد أفصـح من نطق بالضـاد، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

أما بعد

تناول هذا البحث تمثلات الشـهادة في ديوان عبير الشـهداء للشـاعر الأردني سـعيد يعقوب، وفق المنهجين الاسـتقرائي (الوصـفي) والتحليلي، وذلـك لاسـتكناه الصـور الشـعورية واللاشعورية في عدد من القصائد والأمثلة الدالة من الديوان.

وقد قسـم البحث إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة. وجاءت المقدمة بمثابة المهاد النظري للحديث عن الشـهادة وقيمتها في المحمولات الإسـلامية وانعكاسـها على الفعل المحسـوس، وتناول المبحث الأول : التأسـيس للمفاهيم لغة واصـطلاحا ، مفهوم الشـهادة ، ومنطلقاتها ، وغاياتها.

أما المبحث الثاني فقد تناول : صورة الشـهيد في الانتفاضـة ، وأسرته ، وثوابه عند الله . وقد تضمنت الخاتمة : أبرز النتائج والتوصيات .

أما الدراسـات السـابقة : فهذا البحث من بواكير الدراسـات التحليلية لديوان عبير الشـهداء لسعيد يعقوب ، إلا أن البحث أفاد من دراسات مماثلة منها :

دراسـة الشـهيد في الشـعر العربي الحديث لخالد الكركي ، وهذه الدراسـة أفاد منها الباحث في التأسـيس النظري ولم تتطرق لديوان عبير الشـهداء إذ إنها أسـبق من تاريخ صـدور الديوان ، ومنها : دراسـة بعنوان : قراءة جديدة لقصـيدة الشـهيد لفاروق مواسي ، وهي كالدراسـة السـابقة تبحث في قصـائد عربية ولم تتناول ديوان عبير الشـهداء ، إلا أن الباحث أفاد منها في المرجعيات العامة والتأسيس النظري.

المبحث الأول

التأسيس للمفاهيم لغة واصطلاحا ، مفهوم الشهادة، ومنطلقاتها ، وغاياتها

إن الناظر إلى الصورة الشعرية عند الشعراء باختلاف مشاربهم ومرجعياتهم، سيجد استخدامها تختلف من شاعر إلى آخر، والحكم على جمالها أو دقتها، يرجع إلى مدى تصوير المشهد الشعري الخارجي بشكلٍ يناسب حالة الشاعر الداخلية بكل إحساساته وانفعالاته، وبث هذا المشهد بتعبير حسي يطيب في نفس المتلقي الشعور والعاطفة، فيحس المتلقي بما يحس به الشاعر وينفعل بما انفعل به.(١)

وحين النظر إلى صورة الشهادة، سنجدها مجموع ما يدرك بالحس، وأَن يخبر بما رأى، وأَن يقرَّ بما علم، والشهادة هي البيِّنَة، وعالِمُ الشهادة: هي عالِمُ الأكوان الظاهرة؛ مقابل عالِمِ الغيب. ومفهوم الشهادة في الإسلام يتوافق مع ما ألفه العربي من الدفاع عن أرضه وكرامته، فالشعوب والأمم التي تبتلى بالغزو الأجنبي لا تفتأ تبحث عن سبيل للتحرر من ضيم الاحتلال وجبروته، فكان لمفهوم الشهادة في الإسلام حضور كبير عند الثوار والمناضلين وطالبي الحرية والتحرر من ظلم الاحتلال ونيره، وتتجلى في هذا السياق مقولة عمر المختار: "نحن لا نستسلم ننتصر أو نموت" وهذا المفهوم لمعنى الشهادة يرتبط باسم من أسماء الله تعالى الحسنى "الشهيد"، والشهيد على وزن فَعِيل وهو من أَبنية المبالغة في فاعل فإذا اعتبر العِلم مطلقًا، فهو العليم، وإذا أُضيف في الأُمور الباطنة، فهو الخبير، وإذا أُضيف إلى الأُمور الظاهرة، فهو الشهيد، وقد يعتبر مع هذا أَن يَشْهَدَ على الخلق يوم القيامة.

والشهادة صيغة من الصِّيغ اللُّغويّة التي تستعمل من أجل تمثيل الأشياء والأفكار المجرّدة تمثيلاً وصفيًّا في السياق الشعري، سواء أكانت مجازيّة أم بيانيّة، أو جوْهريّة أم ذاتيّة، وسيجدها في التَّعبير عنها بطريق تجسيد المعاني في الشَّكْل أو الهيئة أو الحركة، أو ماهيتها المجرَّدة.

---

(١) نافع، الصورة في شعر بشار بن برد، ص ٥١-٥٢.

وفي الحديث النبوي الشريف رويت عشرات الأحاديث التي تدل على عظمة الشهادة من أبرزها ما رواه مسلم في صحيحه "عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}،(١) فَقَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: "أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا"(٢)

فهذا الحديث الشريف تتضمن آية من القرآن الكريم واتفقا في بيان فضل الشهادة وقيمتها وعظمها وتوق المؤمنين لها؛ لأنها قضية من أسمى قضايا الوجود الإنساني وأرفعها مكانة "في واحدة من أكثر القيم الإنسانية نبلا وكرامة، وهي قيمة إسلامية تعكس أفضل ما في شخصية الإنسان ثقافيا وإنسانيا، وهذه القيمة / المبدأ هي الشهادة، وهي قيمة كريمة يعززها الشهيد الحاضر الحي، أول الصفحات وأول السيوف وأول الدم"(٣).

وإذا ما نظر المرء إلى مسألة الشهادة من خلال التحليل النفسي، سيجد أن لـ"طبائع الناس مزاجان يتقابلان، مزاج يعمل بأعماله الأريحية والنخوة، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة؛ لأن منفعة الإنسان وجدت لفرد من الأفراد، أما الأريحية فقد وجدت للأمة كلها، أن

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم: ١٨٨٧.

(٣) الكركي، حماسة الشهداء، ص١٩.

الإنسانية لا تزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء، وهو يزداد كلما ازدادت في الإنسانية آفات الأثرة والأنانية، ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة"(١).

أما في الشعر العربي فقد حمل الشعراء لواء الدفاع عن حياض الأرض والعرض وعزة النفس، فظهر شعر الحماسة والبطولة منذ بدايات رواية الشعر في العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، حيث يقول عنترة بن شداد:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل(٢)

وليس بعيدا عما سبق، تذهب الشاعرة فدوى طوقان إلى معنى الحماسة والبطولة بحكمة أخرى:

والأمل الظامئ مهما ذوي ... لسوف يروى بلهيب ودم(٣)

أما في عصرنا الحالي فقد اهتم الشعراء اهتمامًا خاصًا وكبيراً للشهيد ولشعر الشهادة؛ فظهر شعر الرثاء إلى أن استقر ما يمكن تسميته "بالشعر المقاوم" و"القصيدة المقاومة" و"شعر الشهادة" وزين كثير من الشعراء المعاصرين جلّ دواوينهم بقصيدة عن الوطن أو الشهيد أو الثورة، فشاعت في الشعر العربي المعاصر رائحة إنسانية للشهيد؛ حيث عالج كل شاعر الموضوع بطريقته الخاصة، راسمًا من حكايات بطولات وملاحم الشهداء، لوحات ومشاهد شعرية فنية، تنوعت فيها الأساليب البلاغيّة المختلفة، سواء أكانت من علم المعاني أم

(١) العقاد، أبو الشهداء الحسين بن علي، ص٩.

(٢) طراد، الديوان عنترة بن شداد، ص ٤٤.

(٣) طوقان، الديوان، ص١٣٨.

البيان أم البديع، حيث احتوت بالصور المباشرة والمضامين الإشارية، كما نشاهدها في مطلع قصيدة عبد الرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدى[1]

لذا، نشاهد صورة الشهيد عند الشاعر سعيد يعقوب[2]، متمثلاً في ديوانه الذي احتوى على ست وعشرين قصيدة حاورت فكرة الشهادة والشهيد والمقاومة والثورة والنضال والكفاح، كما تناولت بعض القصائد انتفاضة الشعب الفلسطيني ومعركة الكرامة، وقد اخترت من الديوان سبع قصائد لعلاقتها المباشرة مع عنوان البحث، وهذه النصوص تمنح تجلياتها من أفق المقاومة؛ فأدب المقاومة "رفض للواقع وإيمان بالقدرة على تغييره، وتعبير عن الألم، وغضب عارم ضد صور القمع والاضطهاد والاستلاب.. وأمل في استشراف حياة أخرى"[3]. وكأن دماء شهداء الأمة هي التي رسمت حدود الوطن وشكلت "فجر نضالها وضحاه، وكان من حق دمهم على الإبداع، أن يرد على نبعه، وأن يكتب فيها قصائد لها من دمهم الأرجوان، ومن عطر حضورهم رؤى جديدة، ولغة عالية وإيقاع جديد، كان على الشعراء أن يوقدوا جمرة الإبداع بوجودهم، وأن يغذوا حركة الحداثة الشعرية وعروق الكلام ببهجة الموت الصعب/ الموت الاختيار عند الشهداء، وكان عليهم أن يظل خلود الشهيد عنوان قصائدهم حتى يرى الأحياء أن

(١) محمود، ديوان عبدالرحيم محمود، ص ٥٦.

(٢) شاعر أردني من مواليد عام ١٩٦٧م في مدينة مأدبا، أصدر تسعة عشر ديوانا مطبوعا، وله عدد من الدواوين المخطوطة.

(٣) الخطيب، ظواهر حديثة في شعر المقاومة، ص١٨.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للموت صورة أخرى كريمة عزيزة هي أبعد من مجرد الرحيل، بل هي الحياة نفسها تبعث من جديد"[١].

المبحث الثاني

صورة الشهادة والشهيد

يبدو مفهوم الشهادة والشهيد في الشعر الحديث متصلا بالصورة الإسلامية للشهادة، وتعبر القصائد التي تشكل ملامح هذا المفهوم وترسم أبعاده عن رؤى وخواطر مهمة في هذا الباب، خاصة تلك القصائد التي عالجت المفهوم بصورة عامة وليس من خلال رثاء شهيد بعينه، وتقدم قصيدة "هواجس شهيد" صورة بهية للشهيد للحظة الاختيار والإقدام، تلك اللحظة التي لا يتراجع فيها صاحب الشهادة ولا ينظر إلى الوراء.

الشهيد ليس فتى قادما من الأسطورة والتاريخ، بل هو شخص مؤمن يعي اختياره، لأن الحياة عند الإنسان الشريف غايتان "إما النصر وإما الشهادة"، يقول يعقوب في قصيدة (هواجس شهيد):

قد سرت لكن غير متئد ... ومضيت لم أجبن ولم أحد

أنا لا أبيت على الصغار ولا ... أسقى الهوان ولو قضيت صدي

وأنا الذي يرد المنون إذا ... غيري تحاماه ولم يرد

والموت للأحرار أطيب من ... عيش الهوان بجنة الخلد[٢]

لا يهنأ الكريم بحياة الذل ولو كان يرفل في الدمقس والحرير وينعم بأطايب الطعام

(١) الكركي، حماسة الشهداء، ص٢٠.

(٢) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٤٣.

وموفور المال؛ لأن نفس الكريم يمرضها الذل مرضـًا شديداً فتعاف كل ما حولها وتحب معزة النفس ولو على الشظف، فلا تكاد قصيدة من قصائد ديوان "عبير الشهداء" إلا وتكررت فيها هذه الفكرة؛ ففي قصيدة "انتفاضة الأقصى" تعود الفكرة من جديد:

تختار إحدى الحسنيين نفوسنا وتعاف غيرهما النفوس خيارا
إما الحياة عزيزة أو أننا نلقى الحمام أعزة ثوارا
فالحر يأنف أن يعيش بذلة ويعاف أن يقضي الحياة صغارا[1]

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

وتأخذ هذه الفكرة أهميتها من اقتران القول بالفعل ومعنى التضحية والفداء قولا وفعلا، فالموت لن يصل للشهيد إلا بعد الدفاع عن الوطن وحمايته من العدا، "فكان التعبير المباشر هو الأصل والباعث على الحماسة لدى عامة المتلقين، وبدا لهم أن الموت غاية، بينما كانت اللغة المجازية هي الأعمق، حيث جعلت النص الغائب يروي لنا مدى عشق الشاعر للحياة والبطولة، فالمقاومة حتى الموت في سبيل حياة حرة كريمة"[2]. فالشهداء لهم منزلة رفيعة عند الشعراء لا توازيها منزلة، فلا يسأل عن مكانتهم.

صور دماء الشهداء

للدم في الثقافة الإنسانية عامة والثقافة العربية خاصة نموذجية جماعية تنطوي على معان رمزية تتصل بالفداء والقرابين والعلاقات البيولوجية الخاصة بالأنساب والقرابات، كما تتصل بطائفة من المعتقدات، والأصل الذي تؤول إليه هذه المعاني والرموز ماثل في معنى جوهري متعلق بالحياة. فالولاء والقسم في الثقافة العربية ارتبطا بغمس اليد في جفنة مملوءة بالدماء.

(١) المرجع السابق ، ص٨١.

(٢) قراءة جديدة لقصيدة الشهيد، ص٢١٩.

ولا تكاد قصيدة في ديوان "عبير الشهداء" تناولت موضوع الشهادة؛ إلا استدعت صوراً متعددة للدماء، حتى أصبح لها صور متعددة، "فصارت حناء وخضابا، وصارت زهورا وورودا، ومشت أنهارا وجداول، وحلقت نوارس وطيورا، وأسس لها الشعراء طقوساً مقدسة، فصارت وضوءاً للشهيد، وزمزماً جديداً غير زمزم مكة، وتعانقت فيها الأرض بزعترها مع السماء بكوثرها"(١).

وظف يعقوب كثيراً من الصور لدماء الشهداء ووضعها في تشبيهات وكنايات ورموز وأخيلة كثيرة ومختلفة؛ محاولا إعطاء الدم الزكي مكانته التي يستحقها، ولحظة الاستشهاد بهاءها وجلالها، والتضحية عظمتها وسموها.

فقد ظهرت صورة "الدماء تسقي" في ديوان عبير الشهداء ماء، وأنهاراً، وجداول، وبحاراً، وآباراً، والأصل في الصورة وحدة الحياة في كل من الماء والدماء(٢)، فالماء سر الحياة على الأرض، والدماء سر الحياة في الإنسان.

يورد يعقوب في قصيدة هواجس شهيد:

فدمي الذي سأريقه فرحاً سيشب منها جمرة الكبد(٣)

رسم الشاعر صورة دماء الشهداء التي استنهضت الهمم واستفزت المشاعر، وألهبت الحماس في وجدان المتلقي، وكأنّ من متطلبات الشهادة الاستعداد النفسي، أو وجود الأريحية المسبق لفعل الشهادة، لأن من شأن ذلك أن تمنح فعل الشهادة التألق والجمال.

(١) عمران، صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني، ص٤٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص٩٨.

(٣) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٤٣.

وحتى تتحقق الأحلام والأمنيات ونيل الاستقلال، كان لا بدّ للدماء أن تروي زهرة الحرية التي تنبت في أرض النضال الصعب، من أجل أن تحيا من جديد، فيقول في قصيدة أم الشهيد:

كيف تحيا الأحلام دون دماء وترف الأحلام والأمنيات[١]

صور الدماء والنور

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

يستدعي يعقوب الآية القرآنية الكريمة "الله نور السموات والأرض" وهذا الاستدعاء للنص القرآني في صورة بهيجة يجمع بين دم الشهيد والزيت الذي هو بركة الأرض وسرها المقدس:

ففي قصيدة أم الشهيد

ودماء الشهيد زيت سراج تتوارى من نوره الظلمات

إن خبا وهج نوره رفدته بزكي من الدم التضحيات[٢]

فكأن الشاعر يصور دماء الشهيد، بأنها وقود مصباح زاهر يمحُو الظلمات، فتستتر وتختفي من شعاعه ما دام وقاد لا يخبو ولا يسكن ولا يخمد لهبُها، فستبقى الأمة تجدد نضالها بالدماء الزاكيات العطرات، وتسعى إلى الحرية إلى الأبد.

صور الدماء والكتابة

هذه قضية الشعوب مع الظلم والظالمين في كل زمان ومكان، إنها قضية التوق للحرية ورفض الظلم والقهر والاحتلال ودفع الثمن غالياً أنفس الأبطال ودماؤهم، وهي صورة من صور ممارسة العدوان ونهب الثروات، وانتهاك الحقوق، وسفك الدماء، واقتراف جرائم القتل

(١) المرجع السابق، ص٦٩.

(٢) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٦٩.

لكل معارض، وجرائم التشريد، وضياع الهوية، وتكميم الأفواه، ولهذا فإن فصول هذه القضية تكتب بدماء الأحرار(١).

وفي قصيدة عبير الشهداء

كانت قصائدكم دماء سطرت ... شتان بين الدر والحصباء

لكن عذري أنني أهوى العلا ... وأذوب وجداً في هوى العظماء

ضمخت شعري من عبير دمائكم ... فسرى شذاه لأبعد الأرجاء

فيفاخر سعيد يعقوب بأن كلماته قد مزجت من شذا دماء الشهداء، وتعطرت بمسكها وأريجها الذي عم الدنيا بأسرها. والشاعر هنا عندما يصور كلماته بأنها من دم الشهداء، وبأنها طيب لثرى الأوطان وريحان ومسك وعنبر، فهو في قمة الوعي بهذه الحرية وإعطائها المكانة اللائقة بها، لتتوارثها الأجيال وتتمسك بها، وتجعلها قداسة لمستقبل الأيام.

وتظهر كلمة (ضمخ) بما لها من حضور كبير في شعر الشهادة عند معظم الشعراء في الشعر العربي الحديث، فيعقوب هنا يماثل الشاعرة فدوى طوقان في استخدام هذا الفعل في قصيدتها، فتقول:

بدا الفجر مرتعشاً بالندى ... يذرذره في الربى والسفوح

ومر بطيء الخطى فوق أرض ... مضمخة بنجيع نفوح(٢)

وفي قصيدة الشهيد، يقول:

كتبت بالدماء أجسادكم شعراً ... وأحلاه ما تخط الدماء

(١) عمران، صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني، ص١٣٨.

(٢) طوقان، الديوان، ص١٦٠.

فاصمتوا إجلال له وخشوعاً حين يتلى يا أيها الشعراء
كل قول إن لم يتوج بفعل فهو في مسمع الوجود هباء
فاسمعوا من فم الشهيد قصيداً نظمته أفعاله الغراء[١]

وقد دعا يعقوب الشعراء إلى الكتابة، ونظم الشعر في تأييد بطولات الشهداء، والاعتراف بفضلهم وعدم استطاعة اللحاق بهم، بما قدموه من تضحيات جسام سطروها بدمائهم قبل أن يسطرها الشعراء بأقلامهم، ويأتي هذا القول متسقًا مع مقولة الشاعر عبد العزيز المقالح، حين اعتذر عن كتابة قصيدة الانتفاضة الأولى، لأن أطفال الحجارة سرقوها من أقلام الشعراء، وكتبوها بالأيدي والأقدام المكسورة، فالشعر عنده لا يكتب بالكلمات، والصورة الشعرية ليست تركيبًا لغويًا فحسب، لكنها قد تكون موقفًا عظيمًا، وقد تكون حركة احتجاج صامتة[٢]، حيثُ يقول في قصيدة الشهيد:

فانظموا في مديحه الشعر ولكن بحروف هي النجوم الوضاء
وانظموا هذه الكواكب شعرا فيه حتى تغار منه السماء
أو فلوذوا بالصمت والصمت أولى إن عجزتم يا أيها الشعراء[٣]

ولعلّ هذا الوصف، هو ما يشكّل الفرق بين من يقاوم ويناضل ويجاهد ويصابر بالساعد والقلم واللسان؛ فيجمع المجد من أطرافه محافظا على قيم المبادئ وقيمه الأصيلة والأنفة والعزة، وبين من يفقد قيم المبادئ أو التنازل والسكوت عنها؛ لأي سبب كان، ولا بأي حال من الأحوال.

(١) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٥٧.
(٢) المقالح، صدمة الحجارة، ص ١٥٤.
(٣) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص ٥٧.

صور الدماء للاغتسال

يزداد معنى الدماء عمقًا عندما يرتبط بالتضحية والبطولة والفداء، عندما تسيل الدماء من الشهيد لحظة استشهاده تزداد جمالاً وجلالاً، فتتراءى لنا صورة لحظة الصدق التي يتشكل فيها النموذج؛ لأن الصدق هو الذي ينتج الموقف والقيمة الذي يُعْتبر تمثيلاً وتطبيقًا لصورة الدماء التي لا تحرر الأرض وتسقي الثرى فحسب، لكنها تطهره تطهيرا وتغسله غسلا كي تنزع من ذراته دنس الاحتلال، وتتأكد من خلو سطحه من آفة الظلم والقهر، ليعود طهورا مقدسا كما كان. ولا شك في أن التطهر يحمل دلالة دينية واضحة ارتبطت بالماء وبدلالاته الرمزية في النماذج العليا للاوعي الجماعي؛ فهو رمز التنزَّه عن الأدناس والنجاسة، ومن كُلِّ مَا يدنس ويبعد عن الأشرار، والكفّ عن الإثام. لذا؛ تتسم آليات التشكيل الرمزي لصورة الشهيد بثراء معرفي كبير، تتضافر في أدائه مقومات فنية – الإيحاء والتشخيص وتراسل الحواس والتلوين والثنائيات الضدية _ تكون اللبنات الأولى والبذور الرئيسة لأبعادها الدلالية، وتشكل مظهرا بارزا من مظاهرها الفنية(١). يقول يعقوب في قصيدة انتفاضة الأقصى:

قل للغزاة سترحلون فقبلكم رحل العدا.. إفرنجة وتتارا

ولسوف نغسل أرضنا من رجسكم بدمائنا وسنمسح الأوضارا(٢)

فاستعار يعقوب قصة التتار والفرنجة ليبعث الأمل في نفوس الثوار، فعلى الرغم مما فعله التتار والفرنجة من دمار هائل في العالم الإسلامي إلا أنهم انسلخوا عن بلاد المسلمين بفضل بطولات المسلمين وجهادهم.

(١) كلاب، الأبعاد الرمزية لصورة الإمام الشهيد أحمد ياسين، ص٢٩٦.

(٢) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٨١.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

صور الدماء والأرض

تبدو العلاقة بين دماء الشهداء والتراب / أرض الوطن علاقة حميمية، فمن أجل تراب الوطن سالت الدماء ووهبت الأرواح، فتوحد الشهيد مع الأرض:

سكبوا الدماء على التراب مروءة لما اشتكى ظمأ لهم وأوارا

وكسوه من دمهم حدائق عزة أبصرت فوق غصونها النوارا[١]

إنها صورة جميلة ومركبة، فظمأ الأرض لا يرتوي من الماء بل يحتاج للدماء الممزوجة بالمروءة لتنبت من الأرض حدائق ممزوجة بالعزة، التي تجلت بأبهى صورة حيث جمعت بين أجمل موقف للفعل الإنساني وهو لحظة استشهاده مع أجمل منظر للطبيعة وهو لحظة ظهور النور.

وترسم قصيدة "عبير الشهداء" احتفالية الأرض بجسد الشهيد الذي ضمته كما ضمت أجساد الشهداء من قبل، فاصطبغت الأرض باللون الأحمر وأنبتت شجراً شامخًا وورداً وزهوراً وهذه رموز للجيل الذي حمل راية الدفاع عن أرضه:

وسل الكرامة كيف فوق ترابها نبت الشموخ مخضبًا بدماء

وسل الكرامة كيف أضحى تربها من عزة وكرامة كسماء

لما تولى الخصم عنها راغمًا ليجر ذيل هزيمة نكراء[٢]

فاقترنت صورة الشهيد بالمثل العليا (الشموخ والعزة والكرامة)، وجاءت صورة العدو وحشًا يجر ذيله منكسرا ذليلا.

---

(١) المرجع السابق، ص٨١.

(٢) المرجع نفسه، ص٩٤.

صورة الشهيد

غدت صورة الشهيد معلما بارزا بوصفها ظاهرة معرفية وجمالية؛ فالصفات المتأصلة في الشهيد من بطولة وإقدام وتضحية وبسالة شكلت في مجملها مصدراً ملهماً للشعراء، ومنحت الشعر القدرة على التعبير عن هذا المعنى وتشكيل أجمل صورة.

ويسعى ديوان "عبير الشهداء" من توظيف الملامح الشخصية للشهيد إلى التغلغل في أعماقها، لاستكناه جوهرها، والكشف عن تجلياتها وحضورها في الذهن، محفزاً لاهتمام القارئ إلى الالتفات لهذه الصفات.

أنت معنى لكل معنى جليل ... تتمنى له النجوم انتسابا

أنت رمز لكل ما يرفع الـ ... رأس ويبقي الفتى عزيزا مهابا

إنما كايد شعاع من الفجـ ... ـر كسى الكون من سناه ثيابا

إنما كايد سحاب روى الأر ... ض فأنسها من نداه السحابا

إنما كايد نداء يدوي ... في ضمير الزمان يأبى الغيابا[1]

يتضح في التصوير لهذه الأبيات أن الشاعر ينقل لنا شعوره في صورة متخيلة قائمة على المشاهدات المرئية عبر وسائل الأخبار، وهذا ما جعله يشعر باعتزاز عما فعله الشهيد من تضحية عظيمة لدينه وأرضه وشعبه، ومدى قوة الإرادة التي تمتعت بها شخصية الشهيد، فهذا الثراء الفكري والروحي منح صورته طاقات تعبيرية جميلة خصبة فاعلة، مكنتها من تجاوز المعتاد والمألوف من المواقف والأحداث وأكسبتها القوة والعطاء والتجدد؛ لأن "ميزة الصورة الخصبة أنها تستطيع أن تشع في كل اتجاه، وأن تسمح لك باستكناه المزيد من المعاني كلما

(١) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص١٥٧.

أوغلت معها بحسك، إنها صورة معطاءة، تكشف عن الجديد دائما"،[١] أما في قوله:

سـوف تبقى على فم الدهر شـعرا ... يـتـحـدى الأيـام والأحـقـابـا

سـوف تبقى للمجد لحن فخار ... لـذ في مسـمـع الـزمـان وطـابـا

سـوف تـبـقـى رمـز الـفـداء ونـورا ... سـاطـعـا يـقـهـر الـدجـى غـلابـا

سـوف تـبـقـى حـيـا بـكـل فـؤاد ... يـعشـق الحق والفدى والترابا[٢]

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

يكشف الشاعر عن فاعلية دماء الشهيد وحتمية الانتصار، وذلك من خلال استثماره للفعل المضارع (تبقى) المسبوق بـ(سوف)، وذلك رغبة في "تخليص المضارع المثبت من الزمن الضيق، وهو زمن الحال – لأنه محدود – إلى الزمن الواسع غير المحدود وهو الاستقبال"[٣] المشوب بأمل الآتي. ويظهر تكرار عبارة (سوف تبقى) على امتداد جزء كبير من النص، "ومما لا شك فيه أن التكرار الاستهلالي يزود النص الشعري بزخم ممتع من الدفق الغنائي تصنعه الحركات الإيقاعية المتعاقبة في السياق بهدف إبراز النبرة الخطابية وكشف عواطف الشاعر وأحاسيسه التي ود نقلها للمتلقي محافظة على وهجها وشعلتها الدلالية المؤثرة"[٤].

وعندما ننظر إلى شكل استدعاء التراث الديني، سنجده مصدراً سخيًا من مصادر الإلهام الشعري في ديوان "عبير الشهداء" وقد أدى حضور الشخصيات الدينية في قصيدة

(١) اسماعيل، التفسير النفسي للآداب، ص ١٠٠.

(٢) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص ١٦٢.

(٣) حسن، النحو الوافي، ص ٦٠.

(٤) حنى، نسيج التكرار بين الجمالية والوظيفية في شعر الشهداء الجزائريين، ص١٣.

"انتفاضة الأقصى" مرجعية دلالية لها حضورها الفعال لخصوصيتها وقدرتها على النهوض بالحدث وتفاعلها معه، لأن المعطيات الدينية " تشبع الإنسان وترضي رغباته في المعرفة بما قدمت من تصورات لنشأة الكون، وتفسير مؤثر لظواهره المتنوعة"(١) فارتبطت شخصية بعض الرموز الدينية بالحرية ومواجهة العدو في أحلك الظروف وأصعبها، فكان لمعركة مؤتة وقادتها في أذهان المسلمين اعتزاز كبير، وغدت شخصيات قادة المعركة نموذجًا أعلى يحتذى، فعدم تكافؤ جيشي (المسلمين والروم) عدة وعتاداً، وما تمخضت عنه نتائج المعركة من انتصار للمسلمين دفع يعقوب إلى استحضار هذه المعركة التي تتكرر مع أطفال الانتفاضة، ووجد فيها ملاذاً للنخوة، وقد وظف يعقوب من خلال استدعائه آلية الاسم المباشر لهذه الشخصيات الإسلامية، لما لها من أهمية في ذهن المتلقي الجمعي، ولما تمثله من قداسة المكانة، وقد استخدم الدلالة المرجعية لهذه الشخصيات استخداماً عصرياً جديداً فأحدث تناصاً تآلفياً بين قداسة الوجوه التي تراءت في شخوص الشهداء، وبين وجوه الصحابة رضي الله عنهم، في قوله:

يا أيها الشهداء لي شرف بأن ... أحني الجبين أمامكم إكبارا

هذي الوجوه لمحت في قسماتها ... (زيدا) و(عبدالله) و(الطيارا)

هذي الدماء رأيت خلف جراحها ... (ابن الوليد) و(خولة) و(ضرارا) (٢)

إن استدعاء رموز الشخصيات الدينية، جاء لخلق حركة درامية في ذهن المتلقي بين الشخوص المُستدعاة؛ وبين شخوص الشهداء، ومن أجل منح الشهادة معنى في مرجعية

(١) نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص٣٥.

(٢) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٨٤.

المتلقي التاريخية، على سبيل محاكاة الماضي مع إسقاطها على بطولات الثوار في الحاضر، وكأن التاريخ موقد الثوار الملتهب، وأن روح مؤتة ما تزال باقية إلى يوم يبعثون.

إن تشكيل يعقوب لشخصية الشهيد باستلهام رموز الشخصيات الدينية التراثية وإسقاطها على الحاضر يبرز "وعي المبدع – أيا كان مجال إبداعه – بالماضي، وفهمه للحاضر، واستشرافه للمستقبل"(١).

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

صور شهداء الانتفاضة

وتأخذ الانتفاضة أعلى صورها من ظاهرتين اثنتين: الحجر (مادة القتال) والأطفال (حراس الحلم والتحدي) وبين هذين البعدين كانت قصائد الانتفاضة تقرأ على المنابر خطابة، وحماسة، وتصويرا،... لقد فرضت الانتفاضة على الواقع الثقافي معطيات جديدة، فإذا كان الشباب هم مادة الثورة فإن الشعب كله، وخاصة جيل الفتيان هو وقود الانتفاضة... هذه الحالة النضالية العظيمة حاضرة في تفاصيل قصيدة "انتفاضة الأقصى" لسعيد يعقوب، وقد شكل رؤيتها من مادة الحياة التي ينصب غضب العدو وحقده عليها؛ لأنها تعني الحق والوطن والثورة والحرية والتحرير والمستقبل.

سل من تشاء يبثك الأخبارا ... كيف انتفضنا سادة أحرارا

لا الموت يثنينا ولو كانت لنا ... في النار حاجات لخضنا النارا

لو فاخرتنا الشمس في عليائها ... زدنا عليها سؤوداً وفخارا(٢)

"الانتفاضة قالت الكثير؛ وقدمت الكثير، ولكنها في مجال تقديم الطفولة / البطولة أو

(١) الكركي، الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث، ص١٤٦.

(٢) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٨٤.

الطفل / البطل، استطاعت أن تقدم حالة استثنائية لا مثيل لها ولا شبيه. فهنا خرج الطفل عن مساره المحدد له في العادة، وهو مسار الطفولة البريئة الغنية باللعب والضحك والفرح، ليأخذ مسارا آخر يختلف كل الاختلاف"[١] فالطفل تحول إلى ثائر يشارك الرجال في ساحات التحدي للعدو الصهيوني، وخرج من قمقمه كالمارد فتحول إلى أيقونة للأمل، فهذا الفتى القادم الذي يتدفق بالثأر سيغدو رمزاً لثورة مستمرة:

مرحى لفتيان أبوا أن يرضعوا ... ثدي الهوان وما استساغوا العارا

سطعوا نجومًا في سماء ظلامنا ... وتألقوا وسط الدجى أقمارا

وثبوا كما تثب الأسود أهاجها ... في الغاب رفض مذلة وأثارا

فكأن كل فتى تراه ترى به ... لهبا تلظى أو ترى إعصارا[٢]

يحتشد النص بالرموز المعبرة، فالنجوم رمز الهداية، والتوهج بمعني الاحتراق ولإضاءة تعبير عن الحياة تتأتى عن طريق الموت، وموتهم لا يعبر عن عدم إنما هو في سبيل حياة حرة مبتغاة "فعن طريق الشهادة عبر أطفال الانتفاضة وشبابها عن رأيهم في مستقبل بلادهم، وحقهم في حياة آمنة في وطنهم"[٣]، كما يظهر في النص رمز الأسود الذي وصفته القصيدة لأطفال الانتفاضة لما يمثلونه من رمزية الشجاعة والإقدام، والأسد من الرموز التي استدعاها الشعراء عادة لوصف الممدوح بها لما تمثله من رمزية القوة والفتك.

هكذا.. أخذ التمرّد في التولد، وازداد تحرّق الإيمان في أعماق الوجدان، وتحرّكتْ

(١) سيقرق، طلعت. الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني، ص٤٣.

(٢) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٨٥.

(٣) أبو عليان، الشهيد في شعر فدوى طوقان، ص٢٠٢.

تلقائية الرفض المقدّس ب «الانتفاضة» والانتفاضة.. وظهر أول وأقوى ما ظهر في الأطفال الأبطال الذين لم تستطع أن تتسلط عليهم بعدُ أيّة سياسات.. ولا أفسدتْ فطرهم لوثات الدخيل من «الأيديولوجيات».. ولا شغلتهم بحقِّ الأرض عن حقِّ السماء ماديّات الحياة!.. فاجتمعوا.. وانقضّوا.. ولم ينفضّوا.. وما هي إلا بداية لن تكون لها نهاية إلا ببلوغ الغاية.

الشهيد

لم يقف الشعر في رمزية الشهيد عند الحدود القومية العربية فقط، وإنما تجاوزها إلى أفق رحيب، يمجد الشهيد أيا كان جنسه ولونه وقوميته(١). ولعلّ هذا التحول أدى إلى رسمه في ذهن المتلقي كهالة إنسانية، وقيمة عالمية مطلقة.

وتتألق قصيدة "الشهيد" في صور تبعث الحياة في المعاني الجديدة عن الشهداء، وترسم جماليات الرثاء أو حالة وهيئة الشهيد ببراعة فائقة، فهي تجري مقابلة بين الحي / الميت، والشهيد / الحي، بين الموتى الحقيقيين الذين بقوا في الدنيا، والشهداء الأحياء الذين رحلوا عنها وهم خالدون في عالم الآخرة، فقد أفسحت الصورة الشعرية على الرغم من طغيان رائحة الموت مجالاً واسعًا، لعناصر الحياة التي تدفع هجوم الموت وتعري الواقع العربي في الوقت ذاته؛ وتعريضًا بالتهاون والتواني العربي وهذه الإدانة تعني في وجهها الآخر التحريض والدعوة للخروج من حالة الذل والهوان إلى آفاق البذل والتضحية:

نحن موتى وأنتم الأحياء ... فاندبونا يا أيها الشهداء

نحن ليل وأنتم الفجر بساما ... وهل يستوي الدجى والضياء

(١) صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني، ص٤٣٩ بتصرف.

نحن ألفاظ فارقتها المعاني وحروف طنانة جوفاء
نحن آلات دون روح وحس صرفتها الأكف كيف تشاء
فمن الجهل أن نقول رثاء فلنا أولى أن يكون الرثاء[١]

وتتكرر الصورة من جديد وتبعث الأفكار في قصيدة "يا رموز الفداء" وعلى الرغم مما فيها من إيقاع غاضب، غير أنها مزجت بين الموضوع السياسي والشهادة، فجاءت القصيدة من موقع الشاعر المعلق على الأحداث الذي لا يتجاوز دوره في توصيف ما يقع مضيفا ردة فعله إليه، كما أن القصيدة ابتعدت عن دم الشهيد لتذهب إلى ميدان الخطابة وجلد الذات والبكاء على الواقع وهجاء المرحلة، فقصرت صورة الشهيد هنا، وارتكزت على الإعجاب به، والأسى لغيابه، والندب على مآلات الأمور بعده:

اتركوهم في نومهم هانيئينا وتعالوا نبك الذي مات فينا
تعبوا في نهارهم فاستراحوا فدعوهم مع الرؤى وادعينا
لا تقولوا ماتوا فهم خالدونا لا تقولوا زالوا فهم باقونا
لم يمت غيرنا وذلك لما قد قبلنا خذلانهم ورضينا
ودفنا مثل النعام رؤوسا وحنينا للغاصبين الجبينا
وسفكنا دماءنا وأثرنا كل ما كان من خلاف دفينا
ووقفنا نشاهد الحرب تجري وكأن الأمور لا تعنينا
وانشغلنا بكل أمر يؤدي أن نكون الأذلة الصاغرينا
بدم بارد نشاهد أحداثا جساما تشيب حتى الجنينا

(١) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٥٧.

أي عـذر لـنـا وأي اعـتـذار خـجـلا مـنـه لا نـغـص الـعـيـونـا[1]

"إن للشعر دوراً تحريضيـًا لكن بطريقة الشعر، وشفافيته، ومعرفته الحدسية، وابتعاده عن المباشرة في الخطاب، وإلا كان شعر رد فعل لحدث ما ـ أو وصفـًا خارجيـًا يكون فيه الشاعر مراقبـًا وصـافـًا، أو مادحـًا أو مؤرخـًا، وهذا كله خارج دائرة الرؤية والتشكيل التي تشكل وجد الشاعر ورؤاه وجمر عذاباته"[2].

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

صورة أسرة الشهيد لحظة الوداع (أم الشهيد)

لعلّ حضور الأم في مشهد الشهادة وتجربة الشهيد وتفاعلها مع الحدث بالمشاركة فيه، خاصة أم الشهيد "محمد فرحات" التي دفعت الشاعر ليتعجب من إيمانها وعزيمتها وقوة شكيمتها وبسالة موقفها وهي تقدم أبناءها الأربعة وتدفعهم للانضمام إلى قافلة الشهداء بل تبلغ التضحية ذروتها، والبطولة مداها، حين تحث الأم ابنها وتجهزه للمشاركة في العمليات الفدائية ضد العدو الصهيوني:

فـلـتـكـن مـثـل هـذه الأمـهـات تـنـحـنـي إجـلالاً لـهـا الـهـامـات

قـلـبـهـا مـلـؤه الـيـقـيـن وفـيـه الـصـبـر والـعـز والـرضـى والـثـبـات

أي عـزم يـلـوح في مـقـلـتـيـهـا أي حـزم تـسـخـو بـه الـنـظـرات

أي إيـمـان شـع مـن كـلـمـات لـيـس تـرقـى لـوصـفـهـا الـكـلـمـات

نـطـقـت حـين جـلـل الـصـمـت أفـواه (شـيـوخ) ولـم تـفـه (سـادات)

أنـت نـور الـعـيـون والـقـلـب لـكـن مـنـك أغـلـى الـمـبـادئ الـثـابـتـات

(١) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص١١٣.

(٢) الكركي، حماسة الشهداء، ص٣٧٥.

أنت غال على فؤادي ولكن ... منك أغلى بلادنا الطاهرات

امض قاتل ومت شهيداً فإن الموت ... في ساحة الجهاد حياة

ليت أني وهبت ألفاً من الأبناء ... حتى تفيض مني الهبات(١)

فالشهادة عند هذه الأم رخيصة في سبيل الوطن والمبادئ، والحياة الحقيقية هي الموت في ساحة القتال، وحزنها على ولدها حزن ثوري جهادي يستنهض الهامات والهمم.

وتقوم قصيدة "هواجس شهيد" على حوار لقطة الموت، حوار حميمي بناه سعيد يعقوب في مخيلته بين الشهيد وأسرته قبيل لحظات الشهادة، حوار اللحظات الأخيرة إنه يراعي أباه، ويرأم أمه؛ لكنه رأى أن نداء الوطن أولى من الاستجابة لهذا الهاجس المتخيل:

صور تعج بها مخيلتي ... وصدى أحاديث فرت كبدي

فيلوح وجه أبي يعاتبني ... ويرن في سمعي صدى ولدي

من سوف يمسك في المشيب يدي ... إن قلت هل من ممسك بيدي

ارجع بني لمن ستتركني ... شيخاً ضعيفاً واهن الجسد

يا واحدي إن رحت عن نظري ... ما عدت أبصر فيه من أحد(٢)

وهذا الإحساس يسكن فؤاد كل أب يرى ابنه يمضي في طريق الشهادة، إنها لحظة تفيض بزخم من التساؤلات والهواجس، لا سبيل للتعبير عنها إلا بدفقة شعرية مكتنزة بلغة دالة.

ويمضي بهذا الحوار المشحون باللغة المجازية، لترتسم في المخيلة صورة أم الشهيد

وأرى هنالك وجه والدتي ... كم فاض هذا الوجه بالرشد

(١) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٦٩.

(٢) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٤٥.

أماه يا نجما سريت على ... نور بدربي منه متقد

أماه إن جاء النعي غدا ... وأتاك ما تخشينه بغد

فترعي بالصبر واحتسبي ... وتوشحي بملاءة الجلد[1]

إن هذا التصبر والتجمل بالاحتساب هو من ينير للثائر طريقه نحو الاستشهاد. وتختم القصيدة الهواجس التي لاحقت الشهيد بصورة تدفع على الشفقة والتحسر على أبناء الشهيد الذين يرتقبون حنان الأدب ودفء الأبوة ؛ وهي في هذا المختتم تترك صورة حزينة في قلب المتلقي

وصغاري الأطفال من لهم ... إن لم تصنهم مقلتي ويدي

من سوف يكلؤها بلا تعب ... هذي الفراخ بعيشها النكد[2]

صور ثواب الشهيد عند الله وذكره الطيب في الدنيا

يخبو تأثير الموت المرعب فيحل محله الجمال والجاذبية لتحث المقاتل على التوغل في أجواء الحرب، إذ يتجلى الموت جنة وخلوداً تهفو إليها نفوس المقاتلين شوقًا ووجداً؛ إيحاءً بانتفاء بشاعة الموت ورعبه وحضور الفرح والجمال المستمدين من الشهادة والخلود:

يا شهيداً عليه من حلل المجد ... رداء به يتيه الرداء

وعلى وجهه يلوح ابتسام ... فيه يبدو السنى ويبدو السناء

لك في الدهر طيب الذكر والفخر ... وفي جنة الخلود الجزاء

لك في قلب كل حر مكان ... يدرك النجم كي يراه العياء

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٥.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

لـك في كـل مسـجـد صـلـوات ودعـاء يـتـلـوه فـيـه دعـاء

بـاذل الـروح مـن سـخـاء كـريـم عـلـم الـنـاس كـلـهـم مـا الـسـخـاء[١]

ويمتلك الموت نفسا كريمة يتلمسها الشهيد الذى أضحت حياته دربًا شائكًا ومعاناة متصلة، تقابلها بطولة ورجولة وتضحية نادرة، وقد تكرر وصف الشهداء بالبطولة والرجولة في معظم قصائد ديوان "عبير الشهداء" وهذه الصفات ضرورية لتناسب حسن العمل الذي قام به الشهداء في الدنيا وربط هذا العمل بالتقوى والإخلاص:

مـن كـالشـهـيـد رجـولـة وبـطـولـة من كـالشـهـيـد نـدى وفيض سـخـاء

فـلـه بـدنـيـا الـنـاس ذكـر خـالـد ولـه بـوعـد الله خـيـر جـزاء[٢]

ولا يمل الشـاعر من تكرار فكرة الخلود والجزاء والثواب وحسـن العاقبة للشـهيد، فيتناص من جديد مع القرآن الكريم في تكوينه لصورة فنية جديدة؛ مؤكدا امتناع تسمية الشهيد بالميت فهو حي عند الله سبحانه وتعالى {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[٣]، ولا يستدعي سعيد يعقوب المتناص من القرآن الكريم بحسبانه مرجعية شـرعية، ذات بعد معنوي فقط؛ بل بوصـفه جزءاً من البنية الدلالية للنص الشـعري "ولهذا فالإشارات القرآنية لا تشكل عبئا على جسد النص بل ترتبط به عضويا، وبنيويًا ودلاليًا"[٤].

لـو حسـدت امـرءاً لشـيء حـواه لـحسـدت الشـهـيـد وهـو رفـات

(١) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٦١.

(٢) المرجع السابق، ص٦١.

(٣) آل عمران: ١٦٩.

(٤) اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص٣٦.

نـال أسـمـى مـثـوبـة ومـقـام بشـرتـنـا بـذلـك الآيـات

فـهـو الـحـي في الـحـقـيـقـة أمـا نـحـن مـا نـحـن إنـنـا أمـوات[1]

فالأبطال هم الذين يصنعون التاريخ، وصناعة التاريخ تستوجب التضحيات الجسام، وليس أعز على الإنسـان من روحه فداء لوطنه ومبادئه ودينه، فيقابلهم التاريخ بتمجيد أفعالهم ويخلد ذكراهم، فإن القيم الخالدة لا يمكن أن تموت أو تزول كما أن مبادئ الشـرف والأمانة والكرامة والعزّة والوفاء والإخلاص باقية الى يوم الدين ببقاء رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

إن الـذي ضـحـى بـعـمـر واحـد مـنـكـم سـيـحـيـا ذكـره أعـمـارا

ويسـجـل الـتـاريـخ في صـفـحـاتـه اسـم الشـهـيـد مـعـطـراً تـذكـاراً[2]

إنه الموت الممزوج بطعم الألم وعبق السعادة، فالموت هنا بوابة الحياة لأجيال قادمة، وتلك ذكرى خالدة يدونها التاريخ بأسـطر ذهبية، لكن الموت هنا ظهر بصـورة مختلفة "حيث يظهر شـخص الموت في إطار مفارقة خلقها الشـاعر تبدو من خلالها خطبة الموت، فالموت قرين الصمت والعدم؛ ولكن الشاعر ينطقه خطيبًا مجيداً، إشارة إلى أنه حق وأنه قدر الإنسان ونهاية مطافه ولذلك فإن الشـاعر لا يظهر خوفه من الموت ورهبته إزاءه وإنما يتعايش معه من حقيقة كونه مفروضـًا على الإنسـان، بل إنه يرحب به حين تكون الحياة مقترنة بالذل والصـغار والبؤس والشقاء"[3]

"إن صـورة الشـهيد في الشـعر لم تعد رثاء، وذكر مناقب، وتعبيراً عن مشـاعر الأسـى

(١) يعقوب، ديوان عبير الشهداء، ص٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص.٧٠

(٣) الصايغ، الصورة الاستعارية في الشعر العربي الحديث، ص٦٠.

والعتاب، فالشهادة اختيار، والخلود تجاوز إلى المستقبل، والشعر عباءة هذا الاختيار"[١].

فقد استعان بتكرار جملة شعرية في استهلال القصيدة وفي خاتمتها مرة أخرى، في محاولة منه "لتأطير مقاطعها بجملة شعرية تضمن لها بناء فكريًا وإيقاعيًا محكمًا؛ لكن المتأمل يلاحظ أن المقاطع لا تتواشج بمنطق التنامي والتآزر، بقدر ما تتواصل بمنطق التوازي"[٢].

والتكرار الاستهلالي يشحن النص الشعري بدفق غنائي متواصل يسهم بشكل فعال في تقوية النبرة الخطابية وتمكن الحركات الإيقاعية من التعبير عن التوتر النفسي الذي يكابده الشاعر تجاه وطنه[٣].

(١) الكركي، حماسة الشهداء، ص٣٢٦.

(٢) الخطيب، وهج القصيدة دراسات في الشعر العربي المقاوم، ص٢٣.

(٣) حنى، نسيج التكرار بين الجمالية والوظيفية في شعر الشهداء الجزائريين، ص١٢.

الخاتمة

تطابقت صورة الشهيد في ديوان "عبير الشهداء" مع الصورة الإسلامية وابتعدت كثيرا عن الصورة الأسطورية التي تتضمن البعث والتجدد، وبين الشاعر المعنى الخير للشهادة، المتضمنة لتمكين الشهيد من الدفاع عن أرضه والسعي لنيل حريته وكرامته.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

وقد تنوعت صورة الشهيد في الديوان بتنوع غرض القصيدة وهدفها وغايتها، فجاءت في معظمها ترسم صورة مباشرة للجوانب المادية والمعنوية للشهداء، وتتغنى ببطولاتهم وتمجد صفاتهم وتستدعي النصوص القرآنية التي تدعم ذلك.

كما أنّ الصور جاءت تستدعي حكايات الواقع المعاش للشهيد قبل وما بعد الشهادة، لذا؛ استغنى الديوان عن توظيف الغموض أو الإكثار من الأسطورة والرمز؛ فكان الخطاب يرسم جانباً من لوحات الحدث الإخباري المتعلق بالمتلقين من الجماهير العربية.

المراجـــع

- إســماعيل عز الدين، (١٩٨١). التفســير النفســي للأدب. دار العودة. بيروت، دار العودة، ط٤.
- (١٩٩١). الشــعر العربي المعاصــر، قضــاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ط٣. القاهرة، دار الفكر العربي.
- الانتفاضة
- حني، عبد اللطيف. (٢٠١٢). نســيج التكرار بين الجمالية والوظيفية في شــعر الشــهداء الجزائريين، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مجلة علمية محكمة، منشــورات جامعة الوادي، الجزائر، العدد الرابع مارس.
- الخطيب، أحمد. (١٩٩٦). ظواهر حديثة في شــعر المقاومة، منشــورات الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين بالسعودية.
- ، (٢٠٠٩)، وهج القصــيدة دراســات في الشــعر العربي المقاوم، انتفاضــة الأقصــى في الأدب، مراثي الدرة نموذجا، جامعة البتراء الأردن، عمادة البحث العلمي.
- سيقرق، طلعت. (١٩٩٣)، الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني، من قصيدة الثبات إلى قصيدة الانتفاضة في الوطن المحتل، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- الصايغ، وجدان. (٢٠٠٣). الصورة الاستعارية في الشعر العربي الحديث، رؤية بلاغية لشعر الأخطل الصغير، الأردن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- طراد، عقيد مجيد. (١٩٩٢). ديوان عنترة بن شداد، بيروت، دار الكتاب العربي.
- طوقان، فدوى. (٢٠٠٤). الديوان، بيروت، دار العودة.

- عباس، حسن. (٢٠١٠) النحو الوافي، ط. ١٥. القاهرة، دار المعارف.
- العقاد، (٢٠١٢). أبو الشهداء الحسين بن علي، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- أبو عليان، ياسر. (١٩٩٨). الشهيد في شعر فدوى طوقان. بحث ضمن أعمال مؤتمر/ جامعة النجاح، فلسطين.
- عمران، عبد الوديع. (٢٠٠٢). صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني. عكا، مؤسسة الأسوار.
- الكركي، خالد. (١٩٨٩). الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث، بيروت، دار الجيل.
- ، (١٩٩٨). حماسة الشهداء، رؤية الشهادة، الشهيد في الشعر العربي الحديث، ط١. الأردن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- كلاب محمد. (٢٠٠٥) الأبعاد الرمزية لصورة الإمام الشهيد أحمد ياسين، ورقة بحثية ضمن أعمال مؤتمر الإمام الشهيد أحمد ياسين / الجامعة الإسلامية، غزة.
- محمود، عبد الرحيم. (١٩٩٨). ديوان محمود عبد الرحيم، الأردن، دار الجليل.
- المقالح، عبد العزيز. (١٩٩٢). صدمة الحجارة، دراسة في قصيدة الانتفاضة، بيروت، دار الآداب.
- مواسي، فاروق. (٢٠١٣). قراءة جديدة لقصيدة الشهيد، المجمع. فلسطين، مجلة مجمع القاسمي للغة العربية.
- نافع، عبد الفتاح. (١٩٨٣). الصورة في شعر بشار بن برد، عمّان، دار الفكر.
- نصر، عاطف جودة. (١٩٨٧). الرمز الشعري عند الصوفية، بيروت، دار الأندلس.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، (١٩٩٦) صحيح مسلم. شرح النووي، كتاب الإمارة،

دمشق، دار الخير.

- يعقوب، سعيد، (٢٠٠٩). ديوان عبير الشهداء، عمّان، دار المأمون للنشر والتوزيع.